



دار الفكر الإسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الخامس / ١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

آراء ابن مسكويه [٣٢٠ - ٤٢١هـ] في تربية الأبناء من خلال كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

د. عبد المنعم حسن محمد مساعد

الاستاذ المشارك بجامعة إفريقيا العالمية - عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

مستخلص :

يهدف هذا البحث إلى التعريف بكتاب ابن مسكويه " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق " ، وبيان قيمته العلمية والتربوية ، ودراسة المفاهيم والآراء التربوية في هذا الكتاب الذي يعتبر مصدرا مهما من مصادر الفكر التربوي الإسلامي ، كما يهدف إلى بيان المنهج التربوي المتكامل لابن مسكويه والاستفادة منه وتطبيقه في هذا العصر ، وإبراز جهود رواد الفكر التربوي الإسلامي في تأصيل العلوم التي تعنى بترويض القيم السلوكية.

اتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي ، وتناولت الدراسة التعريف بالكتاب ، ومفهوم وأهداف ووسائل التربية عند ابن مسكويه. وتضمنت خاتمة ذكر فيها الباحث أهم النتائج التي توصل إليها ومنها : يعتبر كتاب ابن مسكويه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق من أهم كتب الفكر التربوي الإسلامي ، وتظهر قيمته العلمية والتربوية في رصانة أسلوبه ودقة عباراته ، وفي اعتماد كثير من علماء التربية القدامى والمعاصرين عليه. قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وست مقالات. جمع ابن مسكويه في تأليف كتابه بين النقل والعقل. آمن ابن مسكويه بقدرة التربية على التغيير ، ودعا إلى ضرورة الاهتمام بالناشئة وغرس القيم الفاضلة في نفوسهم.

Abstract :

This research aims to introduce Ibn Muskawih's book (custom purification and refinement), show its scientific and educational value, and study the concepts and educational opinions in this book, which is considered an important source among the Islamic educational view references.

It also intends to show Ibn Muskawih's perfect educational style and benefit from it by applying this method in this age and focus on the pioneer Islamic educational thinkers and their magnificent roles in science by creating model behavioural morals.

The research student follows a historical, descriptive and analytic method. The study includes introducing the book, the aims and education aids which are presented by the author, Ibn Muskawih.

The conclusion includes the most important findings the research student has come out with :

The book is considered the most important book on Islamic educational view.

All ancient and contemporary scientists believe that Ibn Muskawihee's outstanding style and his precise statements reflect the remarkable scientific educational value of his book.

The author has divided his book into an introduction and six essays

His book is a combination of a quotation and mentality.

He strongly believes in the change through education therefore he emphasizes the necessity of childcare and developing good moral in them.

مقدمة :

اهتم المفكرون والفلاسفة المسلمون بالدراسات التربوية والنفسية التي عنيت بالطبيعة البشرية وفق المنهج الإسلامي الذي عنى عناية فائقة بالدراسات الإنسانية ، مما أكسب العلوم التربوية الإسلامية فاعلية في التطبيق والتأثير ، وحقت تقدماً كبيراً في المجال التربوي الذي يغرس في المرء الفضائل والمبادئ السليمة في الحياة الاجتماعية. وهذا البحث محاولة لبيان دور العلماء المسلمين في تأصيل العلوم التربوية ، التي مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] . كما أن التربية من أهم وسائل التغيير ، لأنها تمثل منهجية إسلامية في ترقية الذات الإنسانية المنوط بها أمر الخلافة في الأرض ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . فتربية النفس مطلب أساسي لبناء الإنسان الخليفة ، ومقصد ضروري من مقاصد الشريعة.^(١) ويعد ابن مسكويه واحداً من أبرز العلماء والمفكرين ، الذين كانت لهم جهود مقدرة في التربية ، أعانه على ذلك ثقافته الواسعة وعلمه الغزير ومعرفته بالفلسفة والأدب والتاريخ.

^(١) قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة ، د. محمد عبد الفتاح الخطيب ، " كتاب الأمة " ، العدد [١٣٩] رمضان ، ١٤٣١هـ ، ص [٥٣] وما بعدها بتصرف.

وكذلك مهنته في خزائن الكتب حتى اشتهر بالخازن لأنه كان أميناً على خزانة كتب ابن العميد ثم كتب عضد الدولة بن بويه. وإذا كان بعض علماء المسلمين قد لقبوا أرسطوا بالمعلم الأول والفارابي بالمعلم الثاني فابن مسكويه يلقب بالمعلم الثالث.

وكتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق يعتبر مصدراً مهماً من مصادر الفكر التربوي الإسلامي، اعتمد في كتابته على معرفته بالعلوم النقلية والعقلية وتجاربه الحياتية. والكتاب رغم صغر حجمه فهو عظيم الفائدة، يتضح هذا بجلالة من خلال تأثيره على من جاء بعده من علماء التربية كالإمام الغزالي خاصة في كتابه الإحياء.

تحدث ابن مسكويه في كتابه عن تأديب الصبية والأمور التي تسيء إلى تربيتهم، وضرورة اهتمام الوالدين بتربية أبنائهم، كما أكد على أهمية الدين واعتبره دعامة قوية في التربية، وتناول الكتاب كثيراً من القضايا التربوية. كما أن الكتاب وكما هو واضح من عنوانه يذكي النفوس ويهذب الأخلاق وينقي السرائر كما يبين الطريق لتحقيق القيم والأخلاق الفاضلة.

هدف البحث إلى إبراز جهود رواد الفكر التربوي الإسلامي في تأصيل العلوم التي تعنى بترسيخ القيم السلوكية. ودراسة مفاهيم التربية عند ابن مسكويه، والتعريف بالكتاب وبيان قيمته العلمية والتربوية.

التعريف بابن مسكويه وعصره :

أولاً : حياته^(٢) :

هو أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه، ويطلق عليه اسم أبي علي الخازن، ولقب بالخازن، لأنه كان خازناً للكتب عند الملك عضد الدولة بن بويه الذي حكم من سنة ٣٦٧هـ إلى ٣٧٢هـ.

^(١) انظر ترجمته في : الوافي بالوفيات : الصفدي ، [٥٩/٣]. ومعجم المؤلفين : كحالة ، [١٦٨/٢] والأعلام : الزركلي ، [٢١٢/١] وإرشاد الأريب : الحموي ، [٤٩/٢] ، والامتناع والمؤانسة : التوحيدي ، [٣٢/١].

ولد في سنة ٣٢٠ هـ، وعمر طويلاً، ومات في أصفهان عام ٤٢١ هـ، وهو مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء.

وكان قياً على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة بن بويه، ثم اختص بيهاء الدولة البويهية وعظم شأنه عنده.

تثقف ثقافة أدبية واسعة، ونهل من مجالس العلم ومكتباته، وعني عناية فائقة بالأخلاق فدرس حكمها عند الفرس والعرب والهنود والروم، هذا إلى أنه قرأ ما قد خلفه أرسطو وأفلاطون وجالينوس في هذه الناحية ومحصه تمحيصاً. وكأنها دفعته تربيته العائلية السليمة، وقلبه الكبير الحي، وتجربته الأليمة في مجالس السلاطين والوزراء، إلى إنقاذ عصره والعصور التي تليه من السياسة الخرقاء والأخلاق المعتلة، مما دفعه للقراءة والتأليف في التربية والأخلاق. ولابن مسكويه عهد يشير إلى مدى حرصه على التخلص بالآداب الجليلة والزهد في الدنيا ومحاربة مظاهر الفساد.

ثانياً : عصره^(٣) :

عاش ابن مسكويه في العصر العباسي الثالث أي في العصر الذي يمتاز بشدة ضعف الخلافة العباسية وقيام دويلات لا يعترف أكثرها للخليفة بغير السلطة الاسمية. حيث عاش ومات في عهد الدولة البويهية [٣٢٠-٤٤٧ هـ]. وكان ملوكها يحبون العلم والأدب ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا عظماء الأدباء كالمهلي، وابن العميد، وابن عباد وغيرهم. وكانت مجالسهم حافلة بكبار الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن على شاكلتهم. لذلك لا عجب أن يمتاز هذا العصر بنضج العلم. وبرز في هذا الشراء العلمي علماء أفذاذ أمثال ابن سينا، وابن مسكويه، وابن العميد، والتوحيدي والثعالبي وغيرهم.

عاش ابن مسكويه قرناً كاملاً في كنف الدولة البويهية وهو ألمع القرون الإسلامية حضارة. وهذه الحقبة التاريخية كانت لها خصائص وميزات في تاريخ الفكر والعلم الإسلاميين، وإن كانت بالنسبة للخلافة العباسية عصر تفكك وتعدد في مراكز الحكم، مع

(٣) انظر: الكامل في التاريخ: ابن الأثير [٣/ ٤٤٧]، والبداية والنهاية: ابن كثير، [١١/ ١٩٧]، وتجارب الأمم: ابن مسكويه، [ص ٢٧٧]، ووفيات الأعيان: ابن خلكان [١/ ٤٠٥].

العلم بأن هذا بالذات ، أدى إلى تعدّد مراكز العلم أيضاً ، كما أدى إلى ازدهار تلك المراكز ، ونبوغ العلماء المنتمين إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي آنذاك ، وذلك لتنافس الأمراء وتفاجرهم فيما بينهم باجتماع العلماء والأدباء إلى بلاطاتهم. فنبغ في غضون ذلك رجال علم وحكمة وأدب وسياسية عاصروهم مسكويه وعاصروه ، وكان مسكويه على اتصال وثيق بكثير منهم.

وعلى النقيض تماماً كانت الحالة الخلقية لذلك العصر حيث كانت تعج بالفساد بمختلف ضروبه. ويظهر ذلك جلياً في المجال السياسي وعبث الكبراء والعظماء على السواء. وكغيره من رواد الفكر التربوي قام ابن مسكويه بجهود مقدرة لمعالجة قضايا المجتمع المحيط به فجاء فكره ترجمة صادقة لترقية السلوك الاجتماعي في عصره. ويبدو هذا واضحاً في كتابه تهذيب الأخلاق ، والذي ذكر في مقدمته دور التربية الكبير في تغيير النفوس وإصلاحها.

ثالثاً : آثاره وثناء العلماء عليه :

ترك ابن مسكويه آثاراً كثيرة يأتي في مقدمتها كتابه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، والذي هو موضوع هذه الدراسة ، وكتاب الهوامل والشوامل ، وكتاب الفوز الأكبر ، وكتاب الفوز الأصغر ، وصنّف في التاريخ كتاب تجارب الأمم ابتداءً من بعد الطوفان إلى سنة تسع وستين وثلاثمائة. وله كتاب أنس الفريد وهو مجموع يتضمن أخباراً وأشعاراً مختارة وحكمًا وأمثالاً غير مبوب ، وكتاب ترتيب العادات وكتاب المستوفي أشعار مختارة. وكتاب الجامع ، وكتاب جاوذاً خرد ، وكتاب السير ، ذكر ما يسيّر به الرجل نفسه من أمور دنياه ، مزجه بالأثر والآية والحكمة والشعر.^(١)

ونظراً لما يتمتع به ابن مسكويه من فكرٍ ثاقبٍ وعلمٍ غزيرٍ فقد أثنى عليه العلماء ثناءً عاطراً من ذلك ما قاله عنه الثعالبي : ” في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر “^(٢) وفيه يقول :

^(١) انظر ، الوافي بالوفيات : الصفدي ، [٥٩ / ٣]. واكتفاء القنوع بما هو مطبوع : إدوارد فنديك

[٩٠ / ١] ومعجم المطبوعات : سرقيس [٢٣٧ / ١].

^(٢) قرى الضيف : عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس [١١٥ / ٥].

لا يعجبنا حسن القصر تنزله فضيلة الشمس ليست في منازلها
لو زادت الشمس في أبراجها مائة ما زاد ذلك شيئاً في فضائلها^(١)
وقال عنه الصفدي بعدما ترجم له: "معدود في فلاسفة الإسلام" ونقل الزركلي عن
القفطي قوله: "من كبار فضلاء العجم وأجلاء فارس"^(٢).

وصف الكتاب وبيان موضوعه وقيمه العلمية :

أولاً : وصف الكتاب وبيان موضوعه :

طبع كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه عدة طبعات^(٣) ، حيث طبع في دار الكتب
العلمية ، بيروت لبنان ، سنة ١٤٠٥ هـ ، وطبع في القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ ، كما ترجم الكتاب
إلى اللغة الفرنسية "وقد قام بترجمته للفرنسية محمد أركون سنة ١٩٦٩ م ، دمشق" ، وطبع
بالمطبعة المصرية ، مكتبة الثقافة الدينية ، بتحقيق وشرح غريه : لابن الخطيب. وهذه الطبعة
المحققة هي التي استفاد منها الباحث في دراسته للكتاب.

تبويب الكتاب وتقسيمه :

معنى التبويب ومفهومه : البابُ والبابَةُ في الحُدودِ والحساب ونحوه الغاية ، وحكى سيبويه :
يَبْنَتْ لَهُ حِسَابَهُ بَاباً بَاباً ، وبَابَاتُ الْكِتَابِ سَطُورُهُ ولم يُسمع ما بواحدٍ ، وقيل هي
وجوهه وطُرُقُهُ ، وأَبْوَابٌ مُبَوَّبَةٌ كما يقال أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ^(٤).
والباب اسم لمداخل الأمكنة كباب المدينة والدار وإضافته للتخصيص ، ومنه يقال في
العلم باب كذا وهذا العلم باب إلى كذا أي به يتوصل إليه ، وبوبت باباً عملته وأبواباً مبوبةً
وبوبت الأشياء تبويباً جعلتها أبواباً متميزة^(٥).

(١) يتيمة الدهر : الثعالبي [١٦٥/٢].

(٢) الأعلام : الزركلي [٢١٢/١].

(٣) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، [٢٥/١].

(٤) لسان العرب : ابن منظور ، ٢٢٣/١.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف : محمد عبد الرؤوف المناوي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار
الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١٩٩٠ م ، ص ١٠٩ .

وقد استحسّن العلماء تبويب الكتب وامتدحوا هذه الصنعة الحسنة من المصنفين ، فقد وصف صاحب كشف الظنون كتاباً بقوله : ” كتاب وجيز اللفظ بسيط المعاني محرر المقاصد مهذب المباني حسن التأليف والترتيب جيد التفصيل والتبويب “^(١١).

قسم ابن مسكويه كتابه إلى مقدمة بين فيها المقاصد التي دفعته إلى تأليف الكتاب ، وموضوعه ، وست مقالات تدور كلها حول التربية وتهذيب الأخلاق ، يفرق في المقالة الأولى بين النفس والجسد تفريقاً يثبت به روحانية الأولى وخلودها واحتياج قواها المختلفة إلى كمال خاص يتفق وما فيها من عقلٍ مسيطرٍ وفكرٍ مقدسٍ ، ويتناول في الثانية خلق الإنسان وقابليته للتغيير والتهذيب ومدى أثر المعرفة في العمل الخلقي ، الذي يرقى بالإنسان إلى المنزلة الرفيعة ، وفي المقالة الثالثة يتناول موضوع السعادة ، وأما المقالة الرابعة فتحدد الأعمال الخلقية وتميزها عن غيرها ، والمقالة الخامسة ييسط فيها أنواع المحبة بوجه عام ومحبة الصديق على وجه الخصوص ، وأخيراً تأتي المقالة السادسة لتبين لنا طريق حفظ الصحة على النفس ومعالجتها إذا مرضت.

موضوع الكتاب وبيان الباحث على تأليفه :

يعتبر ابن مسكويه من مفكري الإسلام الأوائل الذين لهم فضل السبق في تناول موضوع الأخلاق وفلسفة التربية بعمق وتوسع ، وقام بإفراد موضوع التربية الأخلاقية في كتابٍ محدد الغاية ، عملي النزعة ، منظم الموضوعات ، واضح الأدلة ، قوي البيان ، ويرجع سبب تأليفه لهذا الكتاب إلى تربية النفوس وتهذيبها بمكارم الأخلاق كما يقول في مقدمة كتابه : ” غرضنا في هذا الكتاب أن نُحَصِّلَ لأنفسنا خُلُقاً تُصَدِّرُ به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كُلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعةٍ وعلى ترتيبٍ تعليمي ، والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي ، وأي شيء هي ولأي شيء أُوجدت فينا ، أعني كمالها وغايتها ، وما قواها وملكانها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتُفْلِحَ وما الذي يُدسيها فتُخِيبَ فإنَّ الله عزَّ من قائل يقول : ﴿ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧-١٠] ، ولما كان لكل صناعة مباديٍّ عليها

^(١١) كشف الظنون : حاجي خليفة ، [٦٢٦/١].

تبتنى وبها تحصل وكانت تلك المبادئ مأخوذة من صناعةٍ أخرى وليس في شيءٍ من هذه الصناعات أن تُبين مبادئ أنفسنا كان لنا عذرٌ واضحٌ في ذكر مبادئ هذه الصناعة على طريق الإجمال والإشارة بالقول الوجيز وإن لم يكن مما قصدنا له وإتباعها بعد ذلك بما توخينا من إصابة الخلق الشريف الذي يشرف شرفاً ذاتياً حقيقياً لا على طريق العرض الذي لا ثبات له ولا حقيقة أعني المكتسب بالمال والمكاثرة أو السلطان والمغالبة“ (١٢).

مصادر الكتاب :

غني عن البيان أن علماء الفكر التربوي المسلمين قد سخرُوا ركائز المنهج الإسلامي من القرآن والسنة لتخدم الجانب التربوي والأخلاقي. حيث جاءت أصول التشريع الإسلامي بالكثير من المبادئ التي تشتق منها التربية الإسلامية أهدافها ومناهجها وأساليبها ، ويعتمد الفكر التربوي عند ابن مسكويه على هذه الأصول.

ومن الضرورة ذكر الأصول التي اعتمد عليها ابن مسكويه ومن واقع كتابه تهذيب الأخلاق لبيان مدى التزامه بها على أنها قواعد ومصادر أقام عليها آراءه التي دونها في كتابه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن مسكويه تأثر بآراء بعض الفلاسفة يتضح ذلك من خلال استشهاده ببعض آرائهم في المجال التربوي ، ولكن الكثير مما نقله عن الفلاسفة يعد من القيم الإنسانية العامة التي لا وجه لنقلها فنقلها بعد انتقاء وتمحيص ، وهو بذلك يكون قد جمع بين مصدري العلم والمعرفة نقلاً وعقلاً.

(١) القرآن الكريم :

يعد المصدر الأول اليقيني الذي يحتوي على معالم المنهج الإسلامي في التربية والتعليم والتنشئة والتوجيه (١٣).

وعلى هذا الاعتبار جاءت المسائل التربوية عند ابن مسكويه في كتابه ، ومن الأدلة على ذلك ما جاء في كتابه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾

(١٢) تهذيب الأخلاق : مقدمة الكتاب.

(١٣) الرسول العربي المبين : عبد الحميد الهاشمي ، ط ١ ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ، ص ١٧.

[الشمس : ٩-١٠] فقد استشهد بالآية على تهذيب النفس وتزكيتها حيث قال : ” والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ماهي وأي شيء ولأي شيء أوجدت فينا ، أعني كمالها وغايتها وما قواها وملكانها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزيكها فتفلسح وما الذي يدسيها فتخب “. (١٤)

وعندما تحدث عن شوق النفس إلى أفعالها الخاصة بها استشهد بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] ، وقال : ” أما شوقها إلى أفعالها الخاصة بها أعني العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله وهذا الفضل يتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له... “. (١٥)

كما نجده ينبه دائماً إلى التمسك بالآداب والفضائل التربوية والخلقية التي حث القرآن الكريم على التمسك بها. (١٦)

ومما سبق يتضح أن ابن مسكويه قد استفاد من القرآن الكريم في تأليف كتابه تهذيب الأخلاق.

(٢) السنة النبوية :

وهي مصدرٌ من مصادر الأحكام ودليلٌ من أدلته تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم والقرآن والسنة وحيان إلا أن السنة وحي غير متلو والقرآن وحي متلو ، وقد ألزمتنا الله طاعتها والانقياد لها في الآية الجامعة (١٧) وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩].

(١٤) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ، حققه وشرح غريبه : ابن الخطيب ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، [ص ٩].

(١٥) تهذيب الأخلاق : [ص ٢١].

(١٦) انظر كل ذلك في كتابه عند حديثه عن الفضائل التي تحت العفة والسخاء والعدالة وغيرها ، [ص ٢٨ وما بعدها].

(١٧) انظر الإحكام في أصول الأحكام : ابن حزم الأندلسي ، [١/١٠٨-١٠٩].

والناظر إلى كتاب تهذيب الأخلاق يرى مدى اهتمام ابن مسكويه بسنة النبي ﷺ وتمسكه بها والاستشهاد بها عند تناوله للقيم التربوية والأخلاقية ، فالسنة عند ابن مسكويه تعتبر مصدراً أساسياً لفكره التربوي ، بل ويجعلها أصلاً من أصول التربية والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله^(١٨): ” فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة وتجرد بنفسه اللطيفة التي عنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل إعداداً روحانياً ليس فيه نزاعٌ إلى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته ولا تشوق إليها لأنه قد تطهر منها وتنزه عنها ولم تبق فيه إرادة لها ولا حرصٌ عليها وقد استخلصها للقاء رب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذي كان غير مستعد له ولا فيه قبول من عطائه ويأتيه حيثنذ الذي وعد به المتقون والأبرار كما سبق الإيلاء إليه مراراً في قوله عز وجل ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] ، وفي قول النبي ﷺ : ” هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر “^(١٩). ومن الشواهد أيضاً قول ابن مسكويه : ” وذلك أن مراعاة الملك لرعيته هي مراعاة الأب لأولاده ومعاملته إياهم تلك المعاملة. وقد كنا أشرنا إلى ذلك وسنزيده بياناً إذا صرنا إلى ذكر سياسة الملك في موضع آخر. وعنايته برعيته يجب أن تكون مثل عناية الأب بأولاده شفقةً وتحنناً وتعهداً وتعطفاً خلافةً لصاحب الشريعة ﷺ “^(٢٠). وفي معرض حديثه عن العجب والافتخار يقول^(٢١): ” وأما المفتخر بنسبه فأكثر ما يدعيه إذا كان صادقاً أن أباه كان فاضلاً فلو حضر ذلك الفاضل وقال أن الفضل الذي تدعيه لي أنا مستبد به دونك فما الذي عندك منه مما ليس عند غيرك لأفحمه وأسكته وقد روى عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة منها أنه قال : ” لا تأتوني بأنسابكم واثنوني بأعمالكم “^(٢٢).

(١٨) تهذيب الأخلاق : [ص ١٠٣].

(١٩) صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، دار الجيل - بيروت ، حديث رقم [٧٣١٣] [ووردت فيه لفظة فيها بدلا من هناك] ، [٨/ ١٤٣].

(٢٠) تهذيب الأخلاق ، [ص ١٥٩].

(٢١) المصدر السابق ، [ص ٢٠٦].

(٢٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : الملا علي القاري [١٠٨/ ٢] ، والحديث ورد فيه بعبارة الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي - [١٨٥/ ١] ” لَا يَأْتِنِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونِي بِأَنْسَابِهِمْ “ ، وانظر : الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي : زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي ، تحقيق : أحمد مجتبى ، دار العاصمة ، الرياض ، [١/ ١٨٥].

كما نجده كثيرا ما يستشهد بأفعال النبي ﷺ يؤصل بها لكثير من الجوانب الإنسانية التي أوردها في كتابه من ذلك قول ابن مسكويه : ” وأما المزاح فإن المعتدل منه محمود وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا “^(٢٣)

(٣) الاستشهاد ببعض آراء الفلاسفة :

لقد تأثر بعض علماء المسلمين بالفلسفة حيث نقلوا من تراث اليونان كالكندي وكالفارابي وابن سينا والعامري والغزالي وغيرهم^(٢٤) ، وابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق أورد بعض آراء الفلاسفة ، من ذلك ما ذكره في معرض حديثه عن سياسة النفس العاقلة : ” وأما النفس الناطقة أعني العاقلة فهي كما قال أفلاطون بهذه الألفاظ : أما هذه فبمنزلة الذهب في اللين والانعطاف ، وأما تلك فبمنزلة الحديد في الصلابة والامتناع ... “^(٢٥) ومن ذلك قوله في موضع آخر من الكتاب : ” وأما أرسطو طاليس فقد بين في كتاب الأخلاق وفي كتاب المقولات أيضاً أن الشرير قد ينتقل بالتأديب إلى الخير “.

وهو يشير في مواضع متفرقة من الكتاب إلى آراء جالينوس وأرسطو وسقراط وفورفيوس وبروسن وفيثاغورث وأبوقراط وأفلاطون والرواقين من فلاسفة الإغريق وينقل عنهم ، بل إنه يعترف صراحة بأنه نقل عنهم^(٢٦).

ثانياً : بيان القيمة العلمية والتربوية للكتاب :

يعد كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمؤلفه ابن مسكويه من أهم كتب الفكر التربوي الإسلامي ، وقد اعتنى به المؤلف عنايةً فائقةً ، وقد نهل منه الكثيرون من العلماء والخبراء في المجال التربوي.

^(٢٣) تهذيب الأخلاق ، [ص ٢٠٧]. وانظر : شرح صحيح البخاري : أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي ، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م ط ٢ ، [٥٨/٩].

^(٢٤) التربية الإسلامية : مرسى ، [ص ٣٣٠].

^(٢٥) تهذيب الأخلاق ، [ص ٦٥].

^(٢٦) انظر الكتاب : ص ٦٦ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩١ ، ١٦٧ ، ١٨٠ .

وقد أشاد العلماء به لاشتهاله على الكثير من الآراء والنظريات التربوية ، والباحث في هذا الكتاب يدرك بوضوح مرتبة صاحبه في الاجتهاد ، وعلو كعبه في علم التربية وتهذيب الأخلاق.

وقد أضفى عليه من تجاربه التربوية ، مما جعله محط أنظار العلماء ، ومرجعاً يفيى إليه العامة والخاصة ، فلا يستغني عنه عالم أو طالب علم أو مشتغل بالتربية والتعليم .
نال كتاب تهذيب الأخلاق شهرةً واسعةً نسبةً لأهمية موضوعه ، وتظهر القيمة العلمية للكتاب في عناية العلماء به ، حيث استفادوا من مادته ونهلوا من نظرياته ومباحثه التربوية .
وصاحب كتاب تهذيب الأخلاق تميّز عن سابقه ” الذين ارتادوا هذا المجال “ بعلمه الغزير بعلوم الأوائل ومنهجه العلمي الرصين في التأليف . قال صاحب كتاب كشف الظنون : ” تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق للشيخ أبي علي : أحمد بن محمد المعروف : بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١هـ ، إحدى وعشرين وأربعمائة ويشتمل على ست مقالات : أوله : [اللهم إنا نتوجه إليك ... الخ] وهو كتاب مفيد في علم الأخلاق “^(٢٧) . وقد قدم الأستاذ عبد الكريم سلمان ” من أكابر علماء الجامع الأزهر الشريف “ بمقدمة زاخرة لطبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، ” تهذيب الأخلاق في التربية “ أثنى فيها على الكتاب ونوه بمكانته العلمية حيث قال في خاتمتها : ” ومن أنفع الكتب في هذا الباب كتاب تهذيب الأخلاق .. جاءت عباراته علمية عالية محكمة الصنع دقيقة الوضع ، وكفاها أنها عبارة مؤلف فاضل من علماء القرن الرابع ... وإن من أنفع الوسائل طبع هذا الكتاب .. “^(٢٨) .

ومما يدل على مكانة هذا الكتاب الجليل أن الإمام الغزالي استفاد منه في كتابه إحياء علوم الدين ومما جاء في ذلك : ” أهمية الحياء عند الطفل وأنه أول منازل النجباء وأن النفس مستعدة للتأديب ويجب ألا تهمل . وأن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة كما يقول ابن مسكويه فإذا نقشت بصورة فقبلتها نشأ عليها واعتادها “^(٢٩) . والقارىء لكتاب الإحياء يرى مدى استفادته من كتاب تهذيب الأخلاق ، والتأثير الواضح على حجة الإسلام الغزالي ،

(٢٧) كشف الظنون : حاجي خليفة ، [٢/ ٢٠٥٤] .

(٢٨) تهذيب الأخلاق : ط ١ ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، [ص ١٢] .

(٢٩) إحياء علوم الدين : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، دار المعرفة - بيروت ، [٣/ ٧٢] ، وانظر تهذيب الأخلاق ، [ص ٦٧] .

ويبدو هذا التأثير فيما نقله نقلاً حرفياً عنه في كلامه عن النفس وتقسيماتها والفضائل وأمهاها وصفاتها الأخلاقية والصفات التي تندرج تحتها وغير ذلك. ويقول ابن الخطيب محقق كتاب ابن مسكويه وشارح غريبه في تعليقه على الكتاب إنه كان قد قرأ أبواباً برمتها منه في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي فظن بادئ ذي بدء أن ابن مسكويه نقل عن الغزالي هذه الأبواب، ولكن بعد البحث وجد أن ابن مسكويه توفي في عام ٤٢١هـ في حين أن الغزالي توفي عام ٥٠٥هـ فيكون ابن مسكويه أسبق من الغزالي، وبذلك يكون الغزالي هو الناقل عن ابن مسكويه.

كما استفاد منه نصير الدين الطوسي في تأليف كتابه "أخلاق ناصري" وحذا فيه حذو ابن مسكويه، مما جعل البعض يقولون إن كتابه هذا ترجمة لكتاب التهذيب للفارسية مع إضافات قليلة.^(٣٠) وقال عنه: بنفسه كتابٌ حاز كل فضيلة وصار لتكميل البرية ضامناً مؤلفه قد أبرز الحق خالصاً بتأليفه من بعد ما كان كامناً ووسمه باسم الطهارة قاضياً به حق معناه ولم يك مائناً لقد بذل المجهود لله دره فما كان في نصيح الخلائق مائناً

آراء ابن مسكويه في تربية الأبناء

أولاً : مفهوم التربية عند ابن مسكويه :

تعريف التربية لغةً واصطلاحاً :

التربية لغةً : يعود أصل كلمة التربية في اللغة إلى الفعل "رَبَا" ^(٣١) أي زاد ونما، فربا يربو بمعنى زاد ونما، قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، والتربية بمعنى التنشئة والرعاية ،

^(٣٠) معالم الحضارة الإسلامية : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ط ٤ ، ١٩٨٨م ، [ص ١٧٤].

^(٣١) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار صادر بيروت ط ١ ، [٨٢/١] ، والصحاح في اللغة للإمام أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، دار الكتاب ، القاهرة ، [٢٤٣/١] ، والمعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، دار الدعوة ، [١/٣٢٦].

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

ورباه بمعنى أصلحه ، وتولى أمره ، وساسه وقام عليه ورعاه ، جاء في اللسان : ” والرِّبَابَةُ بالكسر القِيَامُ عَلَى الشَّيْءِ بِإِصْلَاحِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ “^(٣١) فكلمة التربية لا تخرج في معناها اللغوي عن دائرة النمو والزيادة والتنشئة.

التربية اصطلاحاً : وردت تعاريف كثيرة للتربية عند العلماء ، ولكن لا تخرج تعريفاتهم بأي حال من الأحوال عن المعنى اللغوي للكلمة.

قال الإمام البيضاوي : هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً.^(٣٢) وقال الراغب الأصفهاني : التربية إنشاء الشيء حالاً فحلاً إلى حد التمام.^(٣٣)

وعرفها علماء التربية بأنها : عملية يُقصد بها تنمية وتطوير قدرات ومهارات الأفراد من أجل مواجهة متطلبات الحياة بأوجهها المختلفة. أو هي تغيير في السلوك.^(٣٤) أما الألفاظ والمصطلحات التي كانت تُستخدم في كتابات السلف للدلالة على معنى التربية ، فمنها ما يلي :

مصطلح التنشئة^(٣٥) : ومن استخدم هذا المصطلح العالم عبد الرحمن بن خلدون ، في مقدمته الشهيرة.^(٣٦) ومصطلح الإصلاح.^(٣٧) ومصطلح التأديب أو الأدب^(٣٨) ، وهو مصطلح

(٣١) لسان العرب ، [٣١٠/١].

(٣٢) أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، للقاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي ، بدون تاريخ ، [٤٢/١].

(٣٣) مفردات غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، لبنان ، [٤٩٣/١].

(٣٤) الخلاصة في أصول التربية الإسلامية ، علي بن نايف الشحود ، ط ١ ، ١٤٣١ هـ ، [٨/١] ، في التربية الإسلامية ، عبد الغني عبود ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ م ، ص ١٥٧.

(٣٥) لسان العرب ، [١٧٠/١].

(٣٦) المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، المكتبة التجارية ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ [٣٦٤/١].

(٣٧) البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبه الإدريسي الشاذلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ ، [٥٥٨/٤].

شائع ورد في بعض أحاديث النبي ﷺ التي منها : ”لأنَّ يُؤدَّب الرَّجُلُ وَلَدَهُ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ كُلَّ يَوْمٍ بِنُصْفِ صَاعٍ“^(٣٩) ، ومن هذه المصطلحات أيضا مصطلح التزكية : قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، قال الإمام ابن كثير في تفسيره : ” طهرها من الأخلاق الدنيئة والردائل “^(٤٠) ، ومعنى هذا أن تزكية النفس تعني تربيتها على الفضائل وتطهيرها من الرذائل .

ومصطلح التعليم : وهو مصطلح شائع ورد ذكره في بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

مفهوم التربية عند ابن مسكويه :

سبقت الإشارة إلى أن العلماء استخدموا عبارات متعددة للدلالة على معنى التربية ، ومن نحى هذا المنحى ابن مسكويه ، ومن المصطلحات التي استخدمها :

التأديب : حيث عقد فصلا كاملا في الكتاب في تأديب الأحداث والصبيان حيث قال : ” النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة ، وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة وليس لها رأي ولا عزيمة تميلها من شيء إلى شيء فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها “^(٤١)

ومن العبارات التي أطلقها على التربية : التقويم والتهذيب والسياسة ، يقول ” والشرعية هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة

^(٣٩) التوقيف على مهات التعاريف ، محمد عبد الرؤوف المناوي ، دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ تحقيق ، محمد رضوان الداية ، [٤٥ / ١] .

^(٤٠) سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، حديث رقم [١٩٥١] ، باب أدب الولد ، [٣٣٧ / ٤] .

^(٤١) تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ ، [٤١٢ / ٨] .

^(٤٢) تهذيب الأخلاق ، [ص ٦٧] .

وطلب الفضائل والبلاغ إلى السعادة ..“^(٤٣) وكذلك مصطلح التعليم حيث قال : ” ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم هذا ظاهر الشناعة جدا“^(٤٤)

ثانياً : أهداف ووسائل التربية عند ابن مسكويه

إن الهدف من تأليف ابن مسكويه لكتابه ”تهذيب الأخلاق“ هو تحسين السلوك وتهذيبه وترقيته على أساس منهاج علمي ، ولذا قال في مقدمة كتابه : ” غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب علمي“.

وتتلخص أهم أهداف ووسائل التربية عند ابن مسكويه إضافة لما ذكره في المقدمة :

(١) غرس الفضيلة في النفوس وتطهيرها من الرزيلة وهذا لا يتأتى إلا بعناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له عن هذا المعنى بجهده وطاقته.^(٤٥) ثم ذكر بعض الأمور التي تعيق الإنسان عن تحقيق هذا الهدف كالإفراط في المأكّل والمشارب. و لا شك أن هذا من صميم تعاليم الإسلام مما يوضح أثر التدين الكبير عند ابن مسكويه.

(٢) أن يلحق الأبناء مبادئ الدين والشرعة منذ حداثة سنهم ، ” والشرعة هي التي تُقوّم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الإنسانية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم وعلى الوالدين أخذهم بها“^(٤٦)

ذلك أن تشيئة الصبي على مبادئ الشرعة وفضائلها تجعل نفسه ميالة إلى الخير عازفة عن الشر ، أما إذا أهمل الصبي ولم يرب على أساس من مبادئ الشرعة فإن نفسه تكون ميالة إلى الوقوع في الشر والإثم والإقبال على اللهو واللذات.

(٤٣) انظر المصدر السابق ، [ص ٤٥].

(٤٤) المصدر السابق ، [ص ٤١].

(٤٥) تهذيب الأخلاق ، [ص ١٨].

(٤٦) انظر المصدر السابق ، [ص ٤٥].

- (٣) عدم الاغترار بالأمور الحسية التي تشغله عما عرض له من تركية نفسه التي يتتهب بها إلى الملك الرفيع والسرور الحقيقي وتوصله إلى قرة العين التي قال الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧]. وتبلغه إلى رب العالمين في النعيم المقيم واللذات التي لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر.^(٥١)
- ولعل الإنشغال بالأمور الحسية خاصة في زماننا هذا مما يعيق الإنسان عن إشباع رغائب الروح وتنقية الوجدان والوصول إلى الكمال.
- (٤) أن يبعد الناشئة عن الشر بالتعليم والتأديب ، ومجالسة الأخيار وأهل الفضل.^(٥٢)
- (٥) أن يُعود الصبيان على الجفاء والخشونة ، وترك التمتع والترفيه.^(٥٣) وهذا من شأنه أن ينمي شخصية الصبي ويغرس فيها كثيراً من السجايا الطيبة كالاعتماد على النفس وقوة التحمل والثبات أمام الشدائد.
- (٦) أن يسمح للصبي بقسط من الرياضة والحركة وأن يعطي لجسمه نصيبه من الراحة والنوم ويمنع الصبي من النوم نهاراً وينام ليلاً على سرير خشن.^(٥٤) ومن هذا الهدف يتضح تكامل الرؤية التربوية عند ابن مسكويه.
- (٧) أن يعود الصبي على قراءة ما هو نافع له ومفيد حيث يقول : ” يحذر من النظر في الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله وما يوهمه أصحابها ، إنه ضرب من الظرف ورقة الطبع ، فإن هذا الباب مفسدةٌ للأحداث جداً “.^(٥٥) وهذه نظرة تربوية دقيقة فهو لا ينفي الشعر جملة وإنما يستبقي منه في منهاجه التربوي ما يتلاءم مع القيم ، ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعود به بالأدب.
- (٨) أن يُعود الصبي على الصمت فلا يسرف في الكلام ولا يتكلم في حضرة من هو أكبر منه ، بل يشتغل بالصمت والاستماع ، ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبه وأن ينظر

(٥١) انظر تهذيب الأخلاق ، [ص ٢١].

(٥٢) انظر المصدر السابق ، [ص ٤٢].

(٥٣) انظر المصدر السابق ، [ص ٧٥].

(٥٤) انظر المصدر السابق ، [ص ٧٠-٧١].

(٥٥) انظر المصدر السابق ، [ص ٦٩-٧٢].

إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يمنع من خبيث الكلام ولغوهِ ويُعوِد حسنه وظريفه وجمل اللقاء وكريمه ولا يرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره.^(٥٧)
أما الوسائل التي تتبع في غرس الفضائل السابقة في نفوس الصبيان ، فإن ابن مسكويه يذكر بعضها وفقاً للتدرج التالي^(٥٨):

الوسيلة الأولى : مدح الأخيار الفضلاء أمام الصبي أو مدح الصبي نفسه إذا أتى فضيلة. وذلك مع التغافل إذا خالفها في بعض الأوقات خاصة إذا حاول الصبي ستر خروجه عن الفضيلة ، لأن معنى ذلك أنه يدرك هفواته ، ولعله يندم ويعود إلى الفضيلة من تلقاء نفسه.

الوسيلة الثانية : إذا لم تجد الوسيلة الأولى فتبلاً ، فلا بد من اللجوء إلى الوسيلة الثانية ، وهي التأنيب سراً. بحيث يعظم عنده ما آتاه ويحذر من معاودته لأن التوبيخ علناً قد يحمله على الوقاحة ويحرضه على معاودة ما استقبح منه وهان عليه.

الوسيلة الثالثة : إذا لم تجد الوسيلة الأولى وهي المدح ، ولم تجد الوسيلة الثانية وهي التأنيب ، فلا بد من اللجوء إلى الثالثة وهي الضرب. ذلك أن الضرب ضرورة ، والضرورات تقدر بقدرها ، بمعنى ألا يكون ضرباً مؤلماً أو مبرحاً ، بل ينبغي أن يقتصر فيه على ما يؤدي الغرض. بل قد يكفي مجرد التهديد.

ومن هذه الأهداف والوسائل يتضح الأثر الكبير لابن مسكويه على مدارس التربية الحديثة في تحقيق رسالتها التربوية.

فالتربية عند ابن مسكويه تربيةٌ روحيةٌ حيث يرى أن المخاطب من الإنسان هو نفسه ، وأن ما يظهره الجسد من تصرفات لا يعدو أن يكون انعكاساً لما تضرمه تلك النفس ، التي لا صلاح للإنسان إلا بصلاحها لذلك ركّز على تطهير النفس وتنزيهاها عن مساوئ الأخلاق ، لتسمو بصاحبها نحو الكمال الإنساني ، وتربيةٌ جسميةٌ حيث لم يفصل بين هذا الجانب وغيره من جوانب التربية ، فقد أولى اهتماماً بالغاً للتربية الجسدية ، التي لا تقل أهمية عن التربية الروحية ، ذلك أن كثيراً من الأعمال تتوقف على سلامة الأبدان وقوتها ، وتربيةٌ سلوكيةٌ

(٥٧) انظر المصدر السابق ، [ص ٧٢ ، ٧٣].

(٥٨) انظر المصدر السابق ، [ص ٦٩].

عملية فلم يكتف في مسيرته التربوية بالأقوال دون الأفعال ، لأن من تمام كمال المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله ، وتربية عقلية فإنه أولى العقل عناية خاصة ، بالحفاظ عليه وتثقيفه بكل ما هو نافع من العلوم الدينية والدنيوية.

ثالثاً : آراء ابن مسكويه في تربية الأبناء

آمن ابن مسكويه بقدرة التربية على التغيير ، ويطلق على التربية اسم التأديب والتقويم والتهذيب والسياسة كما أشرنا من قبل ، وكتابه تهذيب الأخلاق من أهم الآثار العلمية في ميدان التربية الأخلاقية ، حيث تكلم فيه عن أمور كثيرة تتعلق بتربية الصبيان وسنعرض في السطور التالية لبعض آرائه.

(١) تحدث عن العلم وبين أهمية غرسه في نفوس الناشئة كما بين شوق النفس إلى تحصيل العلوم والمعارف ، ذكر هذا في معرض حديثه عن ماهية النفس وغاياتها وقواها وملكاتنا.^(٥٩)

ومما يشير إلى اهتمامه بالعلم رفعه لمكانة العقل وبين أن إصلاح الأخلاق مبني عليه.. وهو يرى أن المرء إذا أحسن توجيهه يكون مصدر خيره وسعاده.^(٦٠)

(٢) يرى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين أو نقيضين كل منهما ليس بفضيلة ، وأمهات الفضائل عند ابن مسكويه هي الحكمة والشجاعة والعفة والسخاء والعدالة. ويندرج تحت كل فضيلة عدد من الصفات الأخلاقية...^(٦١)

(٣) ضرورة ربط العلم بالعمل يتضح ذلك من خلال حديثه عن تحقيق الكمال الإنساني : ” الكمال الإنساني يعتمد على قوتين في نفسه ، قوة عالمة تدفع الإنسان إلى الاشتياق إلى تحصيل المعارف والعلوم وقوة عاملة يحتاج إليها الإنسان في تنظيم أموره وتسييرها. وهذه القوة هي التي تتعلق بالكمال الأخلاقي. وإذا كانت القوة العالمة تتعلق بالنظر والفكر والعقل وتحصيل المعارف فإن القوة الثانية تتعلق بأسلوب عمل الإنسان

(٥٩) انظر المصدر السابق ، [ص ١٨].

(٦٠) انظر تهذيب الأخلاق ، [ص ٢٤].

(٦١) لمعرفة هذه الصفات وما يندرج تحتها ، انظر تهذيب الأخلاق ، [ص ٢٨ ، وما بعدها].

- وسلوكة. ولا يتم الكمال الإنساني إلا بتمامها معا ، لأن العلم مبدأ والعمل أو السلوك تمام له ، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً والتمام بدون مبدأ يكون مستحيلاً^(١٢).
- (٤) عَرَفَ الخلق بأنه حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكرٍ ولا روية وهو على قسمين : قسمٌ طبيعيٌّ من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب. وقسمٌ بالعادة والاكْتِسَاب والتدريب. وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه أولاً فأول حتى يصير ملكةً وخلقاً^(١٣). وهذا يعني أن للأخلاق جانبين : جانب الطبع أو المزاج ، وجانب التطبع والاكْتِسَاب ، وأن بعض الناس أختيار بالطبع وبعضهم أختيار بالشرع والتعلم.
- (٥) اهتمام المربي بالفروق الفردية ومراعاتها ، يتضح ذلك جلياً في حديثه عن مراتب الناس في قبول الأخلاق الفاضلة : ” وذلك أنا نجد من الناس من هو خيرٌ فاضلٌ من مبدأ تكوينه نرى فيه النجابة طفلاً وتفرس فيه الفلاحة ناشئاً..“^(١٤) وهذا ما تنادي به التربية الحديثة من مراعاة للفروق الفردية والاهتمام باستعداد وميول التلاميذ ، فهم يختلفون فيما بينهم.
- (٦) أكد ابن مسكويه في تربية النشء على أهمية الدين واعتبره دعامةً قويةً في هذه التربية لأنه حصنٌ للشباب وخير عاصم لهم من الزلل والخطأ^(١٥) ، فنجدته يقول : ” فإن نفس الصبي ساذجةٌ لم تنتقش بعد.. فإذا نقشت بصورةٍ وقبلتها نشأ عليها واتادها. فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه أبداً على حب الكرامة ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال وبلزوم سنته ووظائفه“^(١٦). وفي هذا إشارة أيضاً إلى يجب على المربي أن يغرس في نفوس الناشئة كرم النفس.

(١٢) انظر المصدر السابق ، [ص ٥٢].

(١٣) انظر المصدر السابق ، [ص ٤٣].

(١٤) انظر المصدر السابق ، [ص ١٨١].

(١٥) انظر المصدر السابق ، [ص ٦٧].

(١٦) انظر المصدر السابق ، [ص ٦٧].

(٧) ضرورة المدح والتحفيز وبيان أثرهما : ويشير ابن مسكويه إلى ناحية تربوية هامة في التعامل مع الصبي وهي أن نمدحه على كل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ونكافئه عليه.^(٦٧)

(٨) على المربي أن يتابع الناشئة ويلاحظ أفعالهم ، ويستمر في إرشادهم وتهذيبهم حتى ترسخ الأخلاق في نفوسهم فلا يحيدوا عنها ويحملهم على حفظ الأخبار والأشعار التي فيها حثٌ على الفضائل وهكذا يستمر معهم حتى تكون لهم خلقاً ثابتاً معهم.

(٩) التدرج في تعليم الناشئة ، ووضع المناهج التربوية المتكاملة ، فالمناهج تلعب دوراً كبيراً في التأثير على شخصية المتعلم وهو من القواعد التربوية الهامة والتي تأخذ بها مدارس التربية في هذا العصر ، يقول ابن مسكويه : ” يربي على أدب الشريعة ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق ثم ينظر في الحساب والهندسة .. “.^(٦٨)

(١٠) تخصيص بعض الأوقات للصبي ليمارس فيها اللعب والرياضة البدنية ، حيث قال : ” وينبغي أن يؤذن للصبي في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً ليستريح إليه من تعب الأدب ولا يكون في لعبه ألمٌ ولا تعبٌ شديد “.^(٦٩) وفي هذا دلالة على اهتمامه الكبير بتنمية الناحية الجسدية التي لا يخفى دورها في تربية الناشئة وهذا ما تأخذ به اليوم مدارس التربية الحديثة.

ومما سبق يتضح أن ابن مسكويه كشف عن أهمية المعلم ودوره في التربية وغرس القيم والأخلاق الفاضلة ، ومراعاة الفروق الفردية وميول الناشئة وحاجاتهم ، كما بين ما يجب أن يكون عليه المتعلم من الأدب وحسن التعامل مع المعلم. كما قرن السعادة بالتربية وأكد على أن الإنسان في ابتداء تكوينه محتاجٌ إلى سياسة الوالدين ثم إلى الشريعة الإلهية والدين والقيم حتى تهديه وتقومه إلى الحكمة البالغة ليتولى تدبير نفسه إلى آخر عمره ، وبين الطريق لتحصيل الخلق الفاضل الذي تنشأ عنه الأفعال الجميلة ، وبين أن غاية الإنسان التي تليق به كإنسان ، والتي بها سعادته ، هي في صدور الأفعال الإنسانية عنه ، وفي طلب الفضيلة الخاصة به ، وذلك لا يتأتى إلا بالعلوم والمعارف.

(٦٧) انظر المصدر السابق ، [ص ٦٩].

(٦٨) انظر المصدر السابق ، [ص ٦٠].

(٦٩) انظر المصدر السابق ، [ص ٧٣].

خاتمة :

- يعتبر كتاب ابن مسكويه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق من أهم كتب الفكر التربوي الإسلامي وهو من أهم وأشهر كتبه ضمنه آراءه التربوية ، والكتاب يدل على سعة علمه وعلى سبقه التاريخي في الكتابة في المجال التربوي والأخلاقي . ونظراً لأن الكتاب يعتبر موسوعة تربوية فهو بحق يحتاج إلى مزيد بحث ودراسة ، هذا ومن خلال دراستي لهذا الكتاب فقد توصلت لعدد من النتائج منها :
- كان للعصر الذي عاش فيه ابن مسكويه أثرٌ واضحٌ في مؤلفاته بعامة وكتابه تهذيب الأخلاق على وجه الخصوص ، مما نتج عنه الجهود المتميزة له في مجال التربية .
 - يهدف ابن مسكويه من تأليفه للكتاب إلى وضع منهج تربوي متكامل لإصلاح النفوس وتهذيبها .
 - قسم ابن مسكويه كتابه إلى مقدمة بين فيها الهدف من تأليفه للكتاب ، وست مقالات ضمنها أفكاره وآراءه في المجال التربوي .
 - جمع ابن مسكويه في تأليف كتابه بين العلوم النقلية والعقلية ، حيث استفاد من ثقافته الدينية ، ومعرفته الفلسفية .
 - الكتاب له قيمته العلمية والتربوية ، فقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في تحريره ، يتضح ذلك من رصانة أسلوبه ودقة عباراته ، كما تظهر هذه القيمة من خلال الذين استفادوا من مادته ممن جاءوا بعده كالإمام العزالي وغيره من علماء التربية . كما أن معظم النظريات التربوية التي وردت في الكتاب هي مما تنادي به المدرسة الحديثة اليوم .
 - تظهر أهمية الكتاب من خلال الآراء التربوية التي تضمنها ، ومنها : آمن ابن مسكويه بقدرة التربية على التغيير ، ويطلق على التربية اسم التأديب والتقويم والتهذيب والسياسة . وحث على مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين ومراعاة حاجاتهم وميولهم .
 - التربية في نظر ابن مسكويه ، تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة ، لتطال جميع جوانبه الروحية والخلقية والجسمية والعقلية والنفسية ، وغيرها من الجوانب ، من غير تفريط ولا إفراط في جانب دون آخر .

- نبه إلى ضرورة الاعتناء بمنهج التربية الصحيحة الذي يُنشأ الفرد من خلاله ، وعلى هدف التربية وضرورة تنقية بيئة التربية من الشوائب التي تحرف الناشئة عن الحق ، كما دعى إلى أن يكون المنهج التربوي متكاملأً مراعيأً لكل الجوانب الإنسانية.
- تلتخص أهم أهداف التربية عند ابن مسكويه في غرس القيم والأخلاق الحسنة في الإنسان.

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم.
- (١) الإحكام في أصول الأحكام : ابن حزم الأندلسي ، بدون تاريخ.
 - (٢) إحياء علوم الدين : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، دار المعرفة - بيروت.
 - (٢) إرشاد الأريب : لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، بدون تاريخ.
 - (٤) الأعلام : خير الدين الزركلي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين.
 - (٥) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع : إدوارد فنديك ، دار صادر ، ١٨٩٦ م ، بيروت.
 - (٦) الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ، الطبعة الأولى.
 - (٧) أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، للقاضي أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي ، بدون تاريخ.
 - (٨) البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الإدريسي الشاذلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ.
 - (٩) البداية والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن كثير : دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م.
 - (١٠) تجارب الأمم : أحمد بن علي بن مسكويه ، بدون تاريخ.
 - (١١) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية : محمد منير مرسي ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥ م.
 - (١٢) تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ.

- (١٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ، حققه وشرح غريبه : ابن الخطيب ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى.
- (١٤) التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد عبد الرؤوف المناوي ، دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ تحقيق ، محمد رضوان الداية.
- (١٥) الخلاصة في أصول التربية الإسلامية : علي بن نايف الشحود ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ.
- (١٦) الرسول العربي المبين : عبد الحميد الهاشمي ، ط ١ ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.
- (١٧) سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.
- (١٨) شرح صحيح البخاري : أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي ، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- (١٩) الصحاح في اللغة للإمام أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، دار الكتاب ، القاهرة.
- (٢٠) صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، دار الجيل - بيروت.
- (٢١) الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي : زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي ، تحقيق : أحمد مجتبى ، دار العاصمة ، الرياض.
- (٢٢) في التربية الإسلامية ، عبد الغني عبود ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٧م.
- (٢٣) قرى الضيف : عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس ، أضواء السلف - الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ ، تحقيق : عبدالله بن حمد المنصور.
- (٢٤) قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة : د. محمد عبد الفتاح الخطيب ، ” كتاب الأمة “ ، العدد ، [١٣٩] رمضان ، ١٤٣١هـ.
- (٢٥) الكامل في التاريخ : أبو الحسن علي بن محمد أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري ، بدون تاريخ.
- (٢٦) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري ، دار صادر بيروت الطبعة الأولى.

- (٢٧) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : الملا علي القاري ، الطبعة : الثالثة - ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م.
- (٢٨) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، دار الدعوة.
- (٢٩) معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة الناشر مكتبة المثنى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي.
- (٣٠) معجم المطبوعات العربية والعربية : يوسف أليان سركيس ، بدون تاريخ.
- (٣١) معالم الحضارة الإسلامية : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ط ٤ ، ١٩٨٨ م.
- (٣٢) مفردات غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، لبنان.
- (٣٣) المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، المكتبة التجارية ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ.
- (٣٤) الوافي بالوفيات : صلاح الدين الصفدي خليل بن أيك ، بدون تاريخ.
- (٣٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، المحقق : إحسان عباس ، دار صادر - بيروت.
- (٣٦) يتيمة الدهر : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، بدون تاريخ.